نداءات سورة التغابن

obeikandl.com

سورة التغابن

مدنية، آياتُها ثماني عشرة آية .

هذه السورة هي آخر المسبحات، ولهذا قال - تعالى- :﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ .

جو السورة جو السور المكية تعالج أصول العقيدة.

تحدثت السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته، فالكون يعرف ربه، يعرف أن وجوده منه وبقاءه به [(١)]، وضربت الأمثال بالقرون الماضية، التي كذبت الرسل وما حل بهم من العذاب والدمار نتيجة كفرهم وعنادهم، وأقسمت على أن البعث حق لا بد منه، أقر به المشركون أو أنكروه، وأمرت بطاعة الله ورسوله، وحذرت من الإعراض عن دعوة الله.

ثم حذر المؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم ينهي عن العمل الصالح، وختمت السورة بالإنفاق في سبيل الله وحذرت من الشح، والله شكور حليم يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير.

* * *

(١)أما الناس فلهم شأن آخر، ما أكثر الذين يتجرءون عليه ويجحدون حقوقه ويحاربون رسله، ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي عقوق هذا وإسفاف؟!

فيا عجبا، كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحدُ؟

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحدُ!

النداء الأول

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [التغابن ١٤:١٨].

صلة الآيات بما قبلها :

ولما كانت السورة مدنية، وكان المهاجرين والأنصار مكلفين بإقامة دولة الإسلام في وجه صعوبات بالغة وخصومات عنيفة، فقد قال الله - تعالى- تصبيرًا للقوم وتقويةً للإيمان[١] ؛ ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

إن إكراه المرء على ترك وطنه شيء شاق، وليس يتحمله كل إنسان، وقد لبى النداءَ أناسٌ فسبقوا سبقًا بعيدًا، وتقاعس آخرون ليستريحوا مع زوجاتهم وأولادهم ففقدوا هذا الشرف، وكثير أولئك الذين يصمون آذاناهم عن نداء الواجب ليحيوا مع من يحبون، لهؤلاء يقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٢].

---

(١) ما يحدث في الكون بقضاء الله وإرادته ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هذا لجميع المصائب في النفس والمال والولد والأحباب ونحوهم فجميع ما أصاب العباد بقضاء الله وقدره فإذا آمن أنّها من عند الله فرضي بذلك، واسترجع، هدى الله قلبه فاطمأن ولم ينْزعج ويرزقه الله الثبات. فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، هذا يتعلق بقوله ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾، في مقام المصائب الخاص . وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي فإن الله أخبر أن كل من آمن بالله وصَدَق إيمانه يكون ذلك سببًا لهداية الله له، وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان كما قال مخبرًا أنه يثبت الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

(٢) التفسير الموضوعي للغزالي - رحمه الله- بتصريف.

obeikandl.com

المعنى والتراكيب :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: هذا تحذير من الله للمؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم ﴿عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ والعدو هو الذي يريد لك الشر فيجب الحذر منه، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح - تعالى- عباده أن لا توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد التي فيها محذور شرعي، مثل التثبيط على طاعة الله.. قطيعة الرحم... إلخ فيجب تقديم مرضاة الله وإيثار الآخرة على الدنيا، ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ .

ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد والتحذير من ذلك قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم أمر - تعالى- بالحذر منهم والصفح عنهم والعفو، ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾ فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره فالجزاء من جنس العمل.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن عفوتم عنهم في تثبيطكم عن الخير، وصفحتم عنهم بعدم الإساءة القولية أو الفعلية وغفرتم لهم ما صدر منهم فإن الله واسع المغفرة.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ اختبار وابتلاء من الله ليعلم من يطيعه ممن يعصيه.

﴿وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أعظم من متاع الدنيا [1].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فعندما نزل قوله - تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ اشتد على القوم فقاموا حتى ورمت أقدامهم، قيل: إن

---

[1] من تعلق قلبه بالدنيا لم يجد لذة الخلوة مع الله.
ومن تعلق قلبه باللهو لم يجد لذة الأنس بالله.
ومن تلعق قلبه بالجاه لم يجد لذة التواضع بين يدي الله.
ومن تعلق قلبه بالمال لم يجد لذة الإقراض لله.
ومن تعلق قلبه بالشهوات لم يجد الفهم عن الله.
ومن تعلق قلبه بالزوجة والولد لم يجد لذة الجهاد في سبيل الله.
ومن كثرت منه الآمال لم يجد في نفسه شوقًا إلى الجنة.
أد. مصطفى السباعي (**هكذا علمتني الحياة**)].

هذه الآية نسخت بآية التغابن ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة؛ يجعل الآية محكمة ، أو أن التقوى حق التقوى في العقيدة ، والتقوى قدر القدرة والاستطاعة في الشريعة ، أي: ابذلوا أيها المؤمنون في طاعة الله جهدكم وطاقتكم ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقون ، هذا في المأمورات، أما في المحظورات فلا بد من اجتنابها بالكلية، كما قال النبي ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه**»[(١)].

﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما يعظكم الله به وما يشرعه من أحكام واعلموا ذلك، وانقادوا له.

﴿وَأَطِيعُوا﴾ الله ورسوله في جميع أموركم.

﴿وَأَنفِقُوا﴾ من النفقات الواجبة والمستحبة.

﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ الشح: هو البخل الشديد مع الجشع والطمع، وهو آفة يمنع كثير من الناس من النفقة المأمور بها، ومن يوق شح نفسه بأن تسمح نفسه بالإنفاق النافع.

﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لأنهم أدركوا المطلوب، ونجوا من المرهوب، فإن كانت النفس شحيحة لا تنقاد لأمر الله، لم يفلح وخسر الدنيا والآخرة، وإن كانت النفس سمحة، طالبة لمرضاة الله، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها.

ثم رغب - تعالى- في النفقة، فقال: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو كل نفقة كانت في الحلال، وقصد بها وجه الله - تعالى- ووضعها في موضعها.

﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (و) مع المضاعفة، أيضًا﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بسبب الإنفاق

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الإقتداء بسنن رسول الله، حديث (٧٣٨٨)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، حديث (١٣٣٧)، والنسائي، حديث (٢٦١٩)، وابن ماجه، حديث (٢) .

والصدقة، فإن الذنوب تكفرها الصدقات والحسنات، ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يقبل من عباده اليسير من العمل ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر - تعالى- لمن تحمل المشاق والتكاليف، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

﴿حَلِيمٌ﴾ بالعباد لا يعاجلهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم.

﴿عَالِمُ الغَيْبِ﴾ ما غاب عن العباد ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ وما يشاهدونه من المخلوقات.

﴿العَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قهر كل شيء.

﴿الحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره الذي يضع الأشياء في موضعها[(١)].

سبب النزول:

عن ابن عباس أن رجلاً سأله عن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾، قال: هؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله هذه الآية[(٢)].

من لطائف القرآن الكريم :

الأولى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ قدم المال؛ لأن فتنته أشد.

الثانية: في تصوير الصدقة بصورة القرض تلطف بليغ في الإحسان إلى الفقراء.

الثالثة: روي أن رسول الله ﷺ كان يخطب، فجاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما بين يديه، ثم قال: «**صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما**»، وقال ﷺ: «**الولد ثمرة**

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) تفسير ابن كثير.

القلوب، وإنّهم مجبنة محزنة»[1].

الرابعة: الطاعة في الأمر ليس لها حدود، ومن ثمّ يقبل منها ما استطاع، أما المنهي فلا تجزئة فيه يطلب بالكامل دون تقصير.

ما ترشد إليه الآيات :

١- النهى عن طاعة الأزواج والأولاد ومن نحب فيما هو ضرر على العبد في التثبط عن طاعة الله وفعل الخيرات.

٢-بذل الجهد في طاعة الله ورسوله ﷺ موصل إلى النجاة والفلاح.

تذييل:

الحق أن مقاومة الضلال والعدوان تحتاج إلى مغارم وتضحيات ينبغي أن يتحملها أهل الإيمان بجلد ورضا، وقد رأينا في عصرنا مبطلين لا يبالون بشيء، يستحيل أن يقهرهم إلا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وإلا فلا إيمان ولا أمان، لذلك ختم السورة بضرورة البذل والكفاح ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ... ﴾ الآية [١٦، ١٧].

* * *

(١) سبق تخريجه. وانظر: تفسير مختصر ابن كثير.